



حقيقة المحبة للنبي ﷺ
تكون بطاعته واتباع سنته ومجالات ذلك



أسامة شحادة

www.osamashade.com

تمهيد:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين، أما بعد

فإننا نشهد في هذه المرحلة هجوم سافر على النبي صلى الله عليه وسلم وسنته من قبل جهات متعددة تحت شعارات حرية التعبير وعالمية الفن ورسالة الصحافة، مما يجعل من حرصنا عن التذكير بوجوب التزام سنة النبي صلى الله عليه وسلم أولاً، وتنفيذ ذلك عملياً ودائماً ثانياً، هو أبلغ رد على هؤلاء الحمقى.

فهم بإساءتهم للنبي صلى الله عليه وسلم لا يهدفون إلا إلى إبعاد المؤمنين به عن سنته وحرمان البشرية من أنوار الهداية، فليكن ردنا إبطال هدفهم ومخالفة مرادهم، بتوسيع دائرة اتباعه كما وكيفاً، فليحرص كل مسلم ومسلمة ملتزمين بالسنة النبوية على تعلم سنن نبوية جديدة -وما أكثرها- من سنته صلى الله عليه وسلم ويطبّقها، ومن كان مقصراً في السنن النبوية يتدارك تقريظه فيها، وتنتشر بين الأهل والمعارف من المسلمين وغيرهم سيرته العطرة وسنته الرحيمة.

وبرغم أن القرآن الكريم يصرح بوجوب اتباع النبي صلى الله عليه وسلم في آيات عديدة وبأوامر واضحة إلا أن البعض من أصحاب الهوى يشكك في ذلك في مخالفة صريحة للقرآن الكريم الذي يزعم أنه يعظمه ولذلك يرد السنة النبوية!!

هذه الطاعة التامة لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم هي المنهج الذي تميز به صدر الإسلام وسلف الأمة من الصحابة والتابعين والأئمة الأعلام، ومنهم الأئمة الأربعة أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، رضوان الله عليهم أجمعين.

إن الطاعة التامة للرسول صلى الله عليه وسلم هي ما حققت للأمة العزة والقوة لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بالتعلم والحث عليه، والعمل وإتقانه، والخلق الحسن والإحسان للجميع ورعاية البيئة ورحمة الحيوان.

ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بالحق ويدعو لإقامة العدل وتجنّب الظلم ومحاربة الخرافة والجهل والوثنية والشرك، فهلموا لطاعة الرسول لتعمر الأوطان وتطمئن القلوب وتنعّم العقول بالحكمة.

إن السنة النبوية وحي من الله عز وجل وهي مفسّرة وشارحة للقرآن الكريم ومضيفة لبعض الأحكام بنفسها استقلالاً، وهي واجبة الاتباع بنص القرآن الكريم، "وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله

ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً" (الأحزاب: 36).

أدلة القرآن على وجوب طاعة النبي صلى الله عليه وسلم:

كثيرة هي الأدلة من القرآن الكريم والسنة المطهرة على أن اتباع السنة النبوية فرض على كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة.

فمن هذه الآيات قوله تعالى:

"قل إن كنتم تحبون الله فاتَّبِعُونِي يحبكم الله" (آل عمران: 31).

"قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين" (آل عمران: 32).

"يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً" (النساء: 59).

"من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً" (النساء: 80).

"يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون" (الأنفال: 20).

"قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين" (النور: 54).

"فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يُصيبهم عذاب أليم" (النور: 63).

"وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهما الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً" (الأحزاب: 36).

"يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم" (الحجرات: 1).

"وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب" (الحشر: 7).

وغيرها من الآيات الكريمة.

وتؤكد هذه الآيات على واجب طاعة المؤمنين الكاملة للرسول صلى الله عليه وسلم في كل المجالات، فالمؤمنون يطيعون الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما أخبر به من أمور الاعتقاد والغيب، ويطيعونه في أمور العبادات والشعائر والمعاملات، وفي أمور القضاء والحكم والتشريع، وفي الأخلاق والعلاقات؛ وبمقدار طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم يكون مقدار الإيمان والحب لله سبحانه وتعالى.

وهذه الآيات وغيرها صريحة في وجوب الطاعة المطلقة للرسول صلى الله عليه وسلم في كل شيء، وهي آيات واضحة وصريحة في وجوب اتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن يشكك في اتباع السنة فضلاً عن معارضته للقرآن الكريم، هو في الحقيقة والواقع ينكر أو يجحد الإيمان بالرسول، وإلا فما هي ميزة محمد عليه الصلاة والسلام وسائر الأنبياء على البشر، إن لم يكن اتباعهم والافتداء بهم واجب من أممهم؟ وما هي فائدة إرسال رسول للبشر إذن؟ لينزل الله عز وجل كتبهم على الناس مباشرة مكتملة دون نبي أو رسول بشري؟ لماذا يأمر الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام وأمه بالافتداء بإبراهيم الخليل عليه السلام في قوله تعالى: "قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه" (الممتحنة: 4)، لماذا الافتداء إلا لكون إبراهيم خليل الرحمن له دور ومكانة تشريعية وليس خالياً من ذلك، كما يزعم أعداء السنة.

ووجوب طاعة الرسل على الناس هي حقيقة قرآنية تشمل كل الرسل والأمم والبشرية، لأن شرعية طاعة الرسل جاءت من الحق سبحانه وتعالى، الذي خلق الخلق كله، وأن تحكيم الرسول والقبول بحكمه وقضائه هو علامة الإيمان من الكفر، قال تعالى: "وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً * فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً" (النساء: 64-65).

يقول الشيخ السعدي في تفسيره: "يخبر تعالى خبراً في ضمنه الأمر والحث على طاعة الرسول والانقياد له. وأن الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين ينقاد لهم المرسل إليهم في جميع ما أمروا به ونهوا عنه، وأن يكونوا معظّمين تعظيم المطيع للمطاع. وفي هذا إثبات عصمة الرسل فيما يبلغونه عن الله، وفيما يأمرون به وينهون عنه؛ لأن الله أمر بطاعتهم مطلقاً، فلولا أنهم معصومون لا يشرعون ما هو خطأ، لما أمر بذلك مطلقاً".

وهذه الآية جاءت رداً على قيام بعض المنافقين بترك التحاكم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والتحاكم للطاغوت "ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدّون عنك صدوداً" (النساء: 60-61).

وما الفائدة إذن من نزول القرآن الكريم مفرقا على الأحداث والمواقف طيلة 23 عاماً، إذا كان لا أهمية لدور النبي صلى الله عليه وسلم؟! وهكذا يتبين لنا أن تعظيم القرآن الكريم يكون بتعظيم أمر النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه أعرف الناس به لأن مصدر علم النبي صلى الله عليه وسلم هو الله سبحانه وتعالى المتكلم بالقرآن الكريم "وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً" (النساء: 113).

أدلة السنة النبوية على طاعة النبي صلى الله عليه وسلم:

وأما الأحاديث الدالة على وجوب اتباع النبي صلى الله عليه وسلم في كل شيء، فكثيرة جداً، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: ومن أبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى"، رواه البخاري.

وقال صلى الله عليه وسلم: «من رغب عن سنّتي فليس مني» رواه مسلم.

"جاءت ملائكة إلى النبي وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة، والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً، فاضربوا له مثلاً، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً، وجعل فيها مأدبة، وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أولوها له يفقهها، فقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا فالدار الجنة، والداعي محمد، فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس"، رواه البخاري.

"إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال: يا قوم إنني رأيت الجيش بعيني، وإنني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا، فانطلقوا على مهلتهم فنجوا،

وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق"، متفق عليه.

"لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر من أمري، مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه (وإلا فلا)"، رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

وهذا الحديث الأخير فيه نبوءة نبوية عن حال بعض الناس اليوم تجاه السنة النبوية، والتي أطلق عليه بعض الأفاضل لقب (الأرائكيون) وهم الذين ينكرون السنة النبوية، والباعث لهم على هذا إما قصد هدم الإسلام، وإما الجهل والغفلة عن فهم حقيقة حث القرآن الكريم على اتباع السنة كما رأينا في الآيات السابقة، وعدم فهم آيات القرآن التي ظنوا أنها تستغني عن السنة النبوية وتكرها.

ومن هذه الآيات التي ظنوا أنها تنصرهم قوله تعالى: "ما فرطنا في الكتاب من شيء" (الأنعام: 38)، ولفرط جهلهم وبسبب منهجهم القاصر عن استعراض جميع الآيات معنا، وصلوا لهذه النتيجة الخاطئة، فبدائيةً هم أهملوا الكثير من الآيات القرآنية الصريحة التي تؤكد وتوجب اتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم وقد أوردنا بعضها.

وثانياً فهموا الآية "ما فرطنا في الكتاب من شيء" بطريقة غير سليمة، فالمقصود بها كما يقول المفسرون التفات كالإمام القرطبي، حيث قال: "أي: ما تركنا شيئاً من أمر الدين، إلا وقد دللنا عليه في القرآن، إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة، يتلقى بيانها من الرسول عليه الصلاة والسلام، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب"، وهو المقصود أيضاً بما يشابهها من الآيات كقوله تعالى: "ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء" (النحل: 89)، فالتبيان المقصود هو تبيان أصول الدين والإيمان والإسلام، وإلا فكثير من جزئيات الدين والشريعة فضلاً عن الدنيا ليست في القرآن!

وثالثاً لو اتبعنا المنهجية الصحيحة في فهم القرآن الكريم والتي تقوم على جمع كل الآيات في الموضوع وفهمها بشكل متكامل من جهة، والتدبر لكامل الآية وعدم اجتزاء بعضها، سنجد أن قوله تعالى "ما فرطنا في الكتاب من شيء" جاء في سياق قوله تعالى "وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون"، ويتفق المفسرون أن الكتاب هنا المقصود به اللوح المحفوظ الذي فيه كل شيء وليس القرآن الكريم، وبهذا يتبين لنا بُعد وتناقض هؤلاء (الأرائكيين/ القرآنيين) مع القرآن الكريم أولاً ومع العقل والعلم ثانياً.

تطبيق السلف لهذه المحبة بغاية الطاعة:

ولقد فهم السلف الصالح هذه الحقيقة القرآنية وطبقوها على أنفسهم في دقائق الأمور وجلائلها، وبذلك استحقوا رضوان الله عز وجل في الدنيا والآخرة، فمكّنهم في الأرض وأدخلهم جنته في الآخرة.

من طاعة الصحابة:

نأخذ نموذج طاعة الصحابة الكرام للرسول صلى الله عليه وسلم حين أمر بمقاطعة الصحابة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك لرأينا العجب، فحتى السلام قاطعوا فيه هؤلاء الثلاثة الصادقين الذين لم يكذبوا كحال المنافقين، وأيضاً امتثال هؤلاء الثلاثة الصادقين لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بانتظار حكم الله عز وجل فيهم، والذي جاء بعد 50 ليلة، ضاقت عليهم الأرض وأنفسهم فيها، لكنهم ثبتوا لطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يتزعزع إيمانهم وطاعتهم برغم رسالة ملك غسان لكعب بن مالك التي يعرض عليه فيها اللحاق به ومنحه الأموال والجاه، لكنه ألقى بها في التنور.

مقولات سادة التابعين:

الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول: "لا رأي لأحد مع سنة سنّها رسول الله صلى الله عليه وسلم".

ويقول أبو قلابة يقول: إذا حدّثت الرجل بالسنة فقال: «دعنا من هذا وهات كتاب الله، فأعلم أنه ضال»، وعلق على هذا الموقف الإمام الذهبي فقال: «إذا رأيت المتكلم المبتدع يقول «دعنا من الكتاب والأحاديث الآحاد وهات العقل» فأعلم أنه أبو جهل، وإذا رأيت السالك التوحيدي يقول «دعنا من النقل ومن العقل وهات الذوق والوجد» فأعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة بشر أو قد حلّ فيه، فإن جبننت منه فاهرب، وإلاً فاصرعه، وابرك على صدره، واقرأ عليه آية الكرسي".

منهج الأئمة الأربعة:

وجريا على سنة الصحابة والسلف الصالح جاء موقف الأئمة الأربعة في تعظيم قدر النبي صلى الله عليه وسلم بتعظيم سنته والخضوع لها وعدم تقديم شيء عليها من الآراء أو الأهواء، وهذه بعض مقولات الأئمة الأربعة توضح ذلك:

1. الإمام أبو حنيفة رحمه الله:

- "إذا صحّ الحديث فهو مذهبي"، حاشية ابن عابدين، 63/1.

- "إذا قلتُ قولاً يخالف كتاب الله تعالى وخبر الرسول صلى الله عليه وسلم فاتركوا قولِي"، إيقاظ همم أولى الأبصار للعلامة الفلاني، ص 50.

2. الإمام مالك بن أنس رحمه الله:

- "إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه"، جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، 32/2.

- "ليس أحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا ويؤخذ من قوله ويترك إلا النبي صلى الله عليه وسلم"، جامع بيان العلم، 91/2.

3. الإمام الشافعي رحمه الله:

- "ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعزب عنه فمهما قلتُ من قول أو أصلت من أصل فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لخلاف ما قلت فاقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قولِي"، تاريخ دمشق لابن عساكر 3/ 1/15.

- "إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا ما قلت"، المجموع للنووي 63/1.

4. الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله:

- "لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري وخذ من حيث أخذوا"، إعلام الموقعين لابن القيم 302/2.

- "من ردّ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو على شفا هلكة"، المناقب لابن الجوزي، ص 182.

وقد طبق الأئمة الأربعة وتلاميذهم هذه الوصايا والتنبيهات، فما هو الإمام الشافعي يخاطب تلميذه الإمام أحمد فيقول له: "يا أحمد: أنت أعلم بالحديث مني فإذا جاءك الحديث الصحيح فأعلمني

به سواء كان حجازيا أو شاميا أو مصريا"، ولذلك حين مر الشافعي بمكة في طريقه لمصر وتعرف على أحاديث وأسانيد جديدة تغيّر مذهبه وأصبح المعتمد هو مذهبه الجديد في مصر .

وكذلك تلميذا الإمام أبي حنيفة، الإمام أبو يوسف والإمام محمد بن الحسن قد غيرا ثلثي مذهب إمامهما لما استجد عندهما من معرفة بالأحاديث النبوية.

وأخيراً؛ فإن تعظيم قدر النبي صلى الله عليه وسلم يكون بتعظيم أمره ونهيه واتباع الوحي الذي جاء به عن ربه سبحانه وتعالى، أما دعوى حبه عبر احتفالات سنوية وكلمات شكلية وطقوس رمزية فهذا من تلبس إبليس على المفاليس!

وهذا الموقف من الأئمة الأربعة -ومثلهم كثير من الأئمة- هو نتاج المحبة والطاعة التامة للرسول صلى الله عليه وسلم، فقد كانوا يستشعرون الحرج من احتمال مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم ولو بالخطأ، فلذلك نبهوا على أنهم راجعون للسنة النبوية حتى لو بعد موتهم! وما أجمل أن يلتزم ذلك عموم أتباع المذاهب كما فعل ذلك والتزمه المحققون من المذاهب كالإمام الزيلعي والإمام ابن حجر والإمام ابن عبد البر وغيرهم من المحققين في المذاهب.

كيف نحقق عمليا محبة النبي صلى الله عليه وسلم بطاعته:

المسلمون الصادقون والمؤمنون المخلصون -على اختلاف أزمانهم وأماكنهم واتجاهاتهم- يُجمعون على وجوب تعظيم قدر النبي صلى الله عليه وسلم ومحبته ونصرته، لقوله تعالى: "لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ" (الفتح: 9)، وقال أيضاً: "فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (الأعراف: 157).

وأعظم التوقير والنصرة والتعظيم للنبي صلى الله عليه وسلم هو طاعته واتباعه في أمر الدين، وهذه هي الخاصية الأساسية التي تميز بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البشر أنه رسول رب العالمين ليلبغنا عنه وحيه وأمره ونهيه، فكيف نزع حب النبي صلى الله عليه وسلم ثم نُعرض عن اتباع سنته وطريقته ومنهجه؟؟

وَأَلَّا اعْتِمَادَ سُنَّتِهِ الصَّحِيحَةَ وَتَجَبَّ مَا لَمْ يَصِحَّ عَنْهُ:

وهو ما وضّحه وأكدّه الإمام النووي، وهو من أئمة الشافعية الكبار في مقدمة كتابه "خلاصة الأحكام" فقال: "فإنّه ينبغي لكل أحدٍ أن يتخلّق بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقتدي

بأقواله وأفعاله وتقريره في الأحكام والآداب وسائر معالم الإسلام، وأن يعتمد في ذلك ما صح، ويجتنب ما ضعف، ولا يغتر بمخالف السنن الصحيحة، ولا يقلد معتمدي الأحاديث الضعيفة، فإن الله سبحانه وتعالى قال: "وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب" (الحشر: 7)، وقال تعالى: "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة" (الأحزاب: 21)، وقال تعالى: "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله" (آل عمران: 31).

فهذه الآيات وما في معناها من حث على اتباعه صلى الله عليه وسلم ونهانا عن الابتداع والاختراع، وأمرنا الله سبحانه وتعالى عند التنازع بالرجوع إلى الله والرسول؛ أي: الكتاب والسنة، وهذا كله في سنة صحت، أما ما لم تصح فكيف تكون سنة؟! وكيف يحكم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قاله أو فعله من غير مسوغ لذلك؟! ولا تغترن بكثرة المتساهلين".

ثانياً التسليم المطلق له صلى الله عليه وسلم في كل أبواب الدين من الاعتقاد والفقه والسلوك:

حيث كان ترك التسليم للسنة النبوية سبب ضلال لكثير من الناس كما يحدثنا الإمام الحنبلي ابن الجوزي في كتابه "صيد الخاطر" فيقول: "تأملت الدخْل الذي دخل في ديننا من ناحيتي العلم والعمل، فرأيتُه من طريقين قد تقدّما هذا الدّين، وأنس الناس بهما، فأما أصل الدخْل في العلم والاعتقاد فمن الفلسفة، وهو أنّ خلقاً من العلماء في ديننا، لم يقنعوا بما قنع به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الانعكاف على الكتاب والسنة، فأوغلوا في النظر في مذاهب أهل الفلسفة، وخاضوا في الكلام الذي حملهم على مذاهب رديّة أفسدوا بها العقائد.

وأما أصل الدخْل في باب العمل فمن الرهبانيّة، فإنّ خلقاً من المتزهدين، أخذوا عن الرهبان طريق النقش، ولم ينظروا في سيرة نبيّنا صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وسمعوا ذمّ الدنيا وما فهموا المقصود، فاجتمع لهم الإعراض عن علم شرعنا مع سوء الفهم للمقصود، فحدثت منهم بدع قبيحة، فأول ما ابتدأ به إبليس أنّه أمرهم بالإعراض عن العلم، فدفنوا الكتب وغسلوها، وألزمهم زاوية التعبد فيما زعم، وأظهر لهم من الخزعبلات ما أوجب إقبال العوام عليهم، فجعل إلههم هواهم، ولو علموا أنهم منذ دفنوا كتبهم وفارقوا العلم انطفأ مصباحهم، ما فعلوا، لكن إبليس كان دقيق المكر، يوم جعل علمهم في دفين تحت الأرض، وبالعلم يُعلم فسأد الطريقين ويهتدى إلى الأصوب؛ نسأل الله عزّ وجلّ ألاّ يحرمننا إياه، فإنّه النور في الظلم، والأنيس في الوحدة، والوزير عند الحادثة".

ثالثاً ترك كل قول يخالف قوله صلى الله عليه وسلم:

كما نصّ على ذلك الإمام الشاطبي المالكي في كتابه الاعتصام بقوله: "ولا يتعصب لمتبوعه - من الأئمة - بالتمادي فيه، لأن ذلك يؤدي إلى مخالفة الشرع أولاً ثم مخالفة متبوعه، ... لأن كل عالم يصرح أو يعرض بأن اتباعه على شرط أنه حاكم بالشريعة لا بغيرها، فإذا ظهر أنه حاكم بخلاف الشريعة خرج عن شرط متبوعه بالتصميم على تقليده".

والخلاصة في محبة وطاعة وتعظيم قدر النبي صلى الله عليه وسلم يخبرنا بها العلامة أبو الحسنات محمد بن عبدالحى اللكنوي، وهو من كبار علماء الحنفية في الهند، فيقول: "ومن نظر بنظر الإنصاف، وغاص في بحار الفقه والأصول متجنباً الاعتساف، يعلم علمًا يقينياً أن أكثر المسائل الفرعية والأصلية التي اختلف العلماء فيها، فمذهب المحدثين فيها أقوى من مذاهب غيرهم، وإني كلما أسير في شعب الاختلاف أجد قول المحدثين فيه قريباً من الإنصاف، فليدركهم، وعليه شكرهم، كيف لا وهم ورثة النبي صلى الله عليه وسلم حقاً، ونواب شرعه صدقاً، حشرنا الله في زميرتهم، وأمانتنا على حبهم وسيرتهم".

مجالات طاعة النبي صلى الله عليه وسلم واتباعه:

طاعة النبي صلى الله عليه وسلم واتباعه تشمل جميع شؤون الحياة كبيرها وصغيرها، وفي كافة مجالاتها ولتسهيل استيعاب شمولها يمكن لنا تقسيمها في البنود التالية:

وَأولاً: اتباع النبي صلى الله عليه وسلم في العقيدة:

* إن أعظم ما جاء به النبي وبقية الأنبياء عليهم السلام هو تعظيم الرب جل جلاله وتوحيده في الطاعة والاتباع "ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة" (النحل: 36).

ولذلك كم هو مؤسف حين نجد بعض المسلمين والمسلمات لا يتبعون النبي صلى الله عليه وسلم في تعظيم الله عز وجل وتعظيم توحيده وعبادته، ويقلدون كفار قريش الذين بين القرآن الكريم انحرافهم في هذا الشأن: "ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى" (الزمر: 3). فيقلدون كفار قريش باتخاذ وسائط بينه وبين الله عز وجل من الأموات والقبور والأولياء! يدعوهم ويستغيث بهم ويطلب منهم قضاء الحوائج وشفاء المرضى رغم أنهم يقرأون في القرآن الكريم: "وقال ربكم ادعوني استجب لكم" (غافر: 60).

والنبي صلى الله عليه وسلم علم ابن عباس رضي الله عنه ويعلمنا: "يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف" رواه الترمذي.

وهذا الحديث يكاد يحفظه كل المسلمين لأنه من أساسيات الإسلام ولأنه يحفظ ويعلم للأطفال في المدارس، ولكن هل سلوك المسلمين والمسلمات الذين يضعون على أنفسهم أو أطفالهم أو بيوتهم أو سياراتهم الخرزة الزرقاء أو الحدوة أو يضربون الخشب خوفاً من العين أو الحسد، هم صادقون في دعوى محبة النبي صلى الله عليه وسلم واتباعه؟ أليست هذه التصرفات والمفاهيم من المفاهيم الجاهلية والشركية التي جاء النبي صلى الله عليه وسلم لحربها وإبطالها؟

وأيضاً وضع التمايم التي يكتبها الكهان والسحرة والمشعوذون والتي تحتوي على طلسم سحرية وعبارات شركية هي منافية لاتباع النبي صلى الله عليه وسلم، وللأسف فإن كثيراً من النساء والرجال ممن يحبون النبي صلى الله عليه وسلم يخالفون أمره ولا يتبعون نهجه الذي حرم إتيان السحرة والعرافين والكهنة حيث شدد صلى الله عليه وسلم في سؤال العرافين: "من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً" رواه مسلم، وأما من صدق كلام هؤلاء الكهان والعرافين فقد وقع في الكفر لقوله صلى الله عليه وسلم: "من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم" رواه أبو داود.

ومما يقع من كثير من الناس وهو مخالف لمحبة النبي صلى الله عليه وسلم ومحبة الله عز وجل استعمال الطيرة والكهانة والسحر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من تطير أو تطير له، أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سحر له، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم" رواه البزار بإسناد جيد.

والسبب في حرمة هذه الأشياء أنها تنافي عقيدة الإيمان السليم بأن الغيب لا يعلمه إلا الله عز وجل ولأن هؤلاء السحرة والمشعوذين والكهان لا تساعدكم الجن إلا بعد أن يكفروا بالله عز وجل، وقد اعترف كثير من السحرة حين قبض عليهم أن الجن لا تساعدكم إلا إذا أهانوا المصحف وكفروا بالله عز وجل، وأيضاً فإن هؤلاء السحرة يأمررون من يأتيهم بأنواع من الشرك مثل أن يذبحوا لقبور أو لرئيس الجن وهكذا.

وأيضاً اتباع النبي صلى الله عليه وسلم يقتضي من محبيه من الرجال والنساء الحذر من متابعة الأبراج وقراءة الحظ والبخت، لأن هذا فيه صرف معرفة الغيب لغير الله عز وجل وتعليق للنفع والضرر بغير الله سبحانه وتعالى، ولو كانت هذه النجوم والأبراج تنفع لنفعت أصحابها وحمتهم من المشاكل والفقر، لكنها من كيد الشياطين الممزوج مع نصب واحتيال الخبثاء.

ومن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وصدق محبته ومحبة الله عز وجل التحاكم لشرع الله عز وجل في الكبيرة والصغيرة على مستوى الأفراد والدول، قال تعالى: "وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً" (الأحزاب: 36)، فكل من أعرض وأبى الاستسلام لأمر الله عز وجل فهو كاذب في دعوى محبته لله عز وجل ونبيه صلى الله عليه وسلم، سواء كان قانوناً يحكم به الناس في المحاكم، أو عرفاً من أعراف القبائل والعشائر، أو كان سلوكاً فردياً، كمن يرفض إعطاء النساء نصيبهن من الميراث ظلماً وطمعاً أو حتى لا يخرج مال أبيه لغير عشيرته!

ومن حقيقة اتباع النبي صلى الله عليه وسلم في العقيدة عدم تكفير الناس ظلماً وعدواناً بسبب التهور أو الجهل، قال صلى الله عليه وسلم: "إذا قال الرجل لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما" متفق عليه.

ومن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم عدم سب الزمن والدهر لأن فيه اعتراضاً على القضاء والقدر ولأن الله عز وجل هو الذي يصرف الزمن والدهر، ففي الحديث القدسي يقول الله تعالى: "يؤذني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار" متفق عليه.

وإذا كان سب الدهر لا يجوز، فكيف بما يفعله الأشقياء من سب الرب جل جلاله أو سب الدين، ماذا بقي لهؤلاء من دعوى محبة الله عز وجل ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، بل لقد نهى الله عز وجل عن سب ولعن الآلهة الباطلة حتى لا يسب أتباعها الله عز وجل "ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم" (الأنعام: 108).

ومن تعظيم الله عز وجل الذي أرشدنا إليه النبي صلى الله عليه وسلم عدم الحلف بغير الله، لأن الحلف نوع من التعظيم لا يجوز إلا لله عز وجل، ولا يجوز الحلف بالله إلا بالصدق، قال صلى الله عليه وسلم: "ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت" رواه البخاري، وقال صلى الله عليه وسلم: "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك". رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وصححه الألباني.

ولأسف نجد كثيرا ممن يحب النبي صلى الله عليه وسلم يحلف بغير الله عز وجل، وهذا منافٍ لاتباع النبي صلى الله عليه وسلم ومنافٍ لمحبة الله عز وجل وتعظيمه خاصة إذا كان حلفا بطاغوت، وتكون الجريمة أكبر حين تجد كثيرا من الناس لا يقبل أن يحلف له بالله عز وجل بل يطلب أن يحلف له بغيره! وأشنع من هذا من يستهين بالحلف بالله كاذبا لكنه لا يجرؤ على الحلف كاذبا بولي أو معظم!!

ومما يلزم أتباع النبي صلى الله عليه وسلم فيه الحرص على الإخلاص في العبادة والعمل والأخلاق لله عز وجل في السر والعلن وعدم الحرص على الحصول على السمعة والإعجاب من الناس من خلال التظاهر بالعبادة والدين أمام الناس فقط، قال صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح الدجال؟ قلنا: بلى، فقال: الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل" رواه ابن ماجة وحسنه الألباني.

ولعل كثيرا من المنشور على وسائل التواصل الاجتماعي من أعمال البر والخير لا تخلو من طلب السمعة والرياء مما يتناقض مع اتباع النبي صلى الله عليه وسلم.

ومما يشيع بين كثير ممن يحب الله ورسوله الاستهانة في نقاش الأمور الشرعية، فهو لا يعرف الأحكام الشرعية ولا يعرف الأدوات العلمية اللازمة لفهم الدين ثم يتصدى لإصدار الفتاوى والأحكام جهلا وعدوانا، وإسقاط العلماء والمجتهدين اعتمادا على أهوائه، وبناء على رضاه بكلام بعض الصحفيين والإعلاميين الذين صدّرتهم القنوات الفضائية غير المختصة كخبراء ومفكرين وعلماء في الدين! وفي كل ذلك تجد استهزاء وخوضا في آيات القرآن بالباطل، والله عز وجل يقول: "ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون" (التوبة 65)، وقوله صلى الله عليه وسلم: "إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار سبعين خريفا" رواه البخاري.

ومن أتباع النبي صلى الله عليه وسلم عدم تصدير وتسييد أهل الباطل، قال صلى الله عليه وسلم: "سيأتي على الناس سنوات خداعات يُصدق فيها الكاذب ويُكذب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين وينطق فيها الرويبضة". قيل: وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة" رواه ابن ماجه وصححه الألباني. ولكن هل اتباع الملايين من الشباب والشابات المحبين للنبي صلى الله عليه وسلم خلف القدوات المزيفة من أهل الفجور والفواحش والمنكرات والفساد يتوافق مع هذه المحبة للمصطفى عليه السلام؟

في النهاية؛ ما سبق هو أمثلة لبعض ما يلزم محبي الله عز وجل ومحبي رسوله صلى الله عليه وسلم الصادقين والحقيين أن يتبعوه ويلتزموه على صعيد العقائد والأفكار والمفاهيم في حياته سرّاً وعلانية لينالوا محبة الله تعالى وينالوا مغفرته.

ثانياً: اتباع النبي صلى الله عليه وسلم في جانب العبادات والشعائر والمعاملات:

أمر الله عز وجل في كتابه بالطاعة والافتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في كل الجوانب والمجالات، قال تعالى: "مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا" (النساء، الآية 80). ومن هذه الطاعة العامة الواجبة للنبي صلى الله عليه وسلم، طاعته في أداء العبادات. ولذلك نجده صلى الله عليه وسلم يحث ويأمر أصحابه أن يقتدوا به في تأدية العبادات، ويدقق عليهم.

ومن أمثلة ذلك، قوله صلى الله عليه وسلم: "من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر الله له ما تقدم من ذنبه" (رواه البخاري). ومعنى قوله "نحو وضوئي"، أي مثل وضوئي، ما يلزم المسلم الصادق الحرص على تعلم طريقة وضوء النبي صلى الله عليه وسلم لينال هذا الأجر، وينال محبة الله عز وجل.

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "صلّوا كما رأيتموني أصلي" (رواه البخاري). فعلى كل مسلم ومسلمة يريدان محبة الله عز وجل أن يصليا لله عز وجل على طريقة النبي صلى الله عليه وسلم، التي نقلها لنا الصحابة في كتب السنة.

وأيضاً قوله صلى الله عليه وسلم: "لتأخذوا مناسككم فإنني لا أدري لعلي لا أحجّ بعد حجتي هذه" (رواه مسلم)، أي مناسك الحج.

وقوله صلى الله عليه وسلم: "خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم" (رواه مسلم)، وذلك في عقوبة الزنا.

وأيضاً قوله صلى الله عليه وسلم للبراء بن عازب: "إذا أخذت مضجعتك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم إني أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابتك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت. واجعلهن من آخر كلامك فإن متّ من ليلتك متّ وأنت على الفطرة". قال البراء: فرددتهم لأستذكرهن فقلت: آمنت برسولك الذي أرسلت. قال صلى الله عليه وسلم: قل آمنت بنبيك الذي أرسلت" (رواه مسلم). ولاحظ دقة النبي صلى الله عليه وسلم حين لم يقبل من البراء تبديل كلمة "نبيك" بـ"رسولك" في الدعاء.

فهذه الأحاديث وغيرها تأمرنا بالحرص على تبيين سنته صلى الله عليه وسلم، واتباعها والتزامها، حتى تقع عبادتنا على صورتها الأتم والأكمل.

إن الحرص على الدقة في أداء العبادات يجب أن يكون في منزلة أعلى مما يحرص عليه الناس من أمور معاشهم ودنياهم، إذ تجد المعلمين يحرصون على دقة انضباط طلبتهم في أداء النشيد المدرسي أو التمارين الرياضية، وتجد مدربي الرياضات الاستعراضية يحرصون على أقصى درجات الدقة في أداء الاستعراضات، وكذلك الحال في الاستعراضات العسكرية، ولا يقول أحد إن هذه دقة لا داعي لها، فلماذا إذاً نهمل الدقة في أداء العبادات بخلاف طريقة الحبيب المصطفى؟ وأين هذا الحب للمصطفى؟ وأين الحب والتعظيم لله عز وجل ونحن نقصر أو نهمل أداء الطاعات بشكلها الأصح؟

ولذلك، بين العلماء أن العبادة والطاعة لله عز وجل لا تقبل إلا إذا توفرت فيها ركنان:

الأول: الإخلاص لله عز وجل. فالله عز وجل لا يقبل عبادة تم إشراك سواه فيها؛ سواء كان من الصالحين والأولياء أو كان من الجماد والأموات والأشجار، قال تعالى: "وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً..." (البينة، الآية 5).

وقال أيضاً: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ..." (النساء، الآية 116). وفي الحديث القدسي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تبارك وتعالى: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه" (رواه مسلم).

الثاني: المتابعة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم في أداء العبادة. والسبيل إلى اتباع النبي صلى الله عليه وسلم في العبادات والشعائر والمعاملات هو تعلمها بشكل صحيح، وعدم الاكتفاء بالمعرفة السطحية لها والتي قد تكون تناقضت مع الزمن أو تعرضت للنقص والزيادة!

وقد لخص لنا العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، رحمه الله، ضوابط كمال الاتباع للنبي صلى الله عليه وسلم في ستة أمور:

1 - السبب: إذ لا بد أن يكون سبب عبادة المسلم موافقاً لسنة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلا يجوز أن نقوم بعبادة لله عز وجل بسبب لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم أو يدلنا عليه. من ذلك مثلاً، تخصيص ليلة المعراج بصلاة القيام لا يجوز، لأن النبي صلى الله عليه وسلم عاش بعد حادثة الإسراء والمعراج على الأقل إحدى عشرة سنة، ولم يخص تلك الليلة بقيام، بينما كان يقوم العشر الأواخر من رمضان ويحث على فعل ذلك.

فإذاً لا يجوز أن نخصص من عند أنفسنا أسباباً للعبادة لم يخصصها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعدم التقيد بذلك يدخل المسلم والمسلمة في دوامة البدعة المذمومة.

2 - الجنس: أي أن يكون جنس الفعل من العبادات التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم. فلا يجوز، مثلاً، أن نغير نوع الأضحية فنضحى بفرس أو طاووس.

3 - القدر أو المقدار: إذ هناك عبادات مقيدة بمقدار محدد كالصلاة، فلا يجوز أن نزيد عدد ركعات صلاة المغرب مثلاً على ثلاث ركعات. كما لا يجوز أن نوصي من التركة بأكثر من الثلث. فيجب أن نلتزم طاعة النبي صلى الله عليه وسلم في المقدار المحدد والمبين. أما ما شرع لنا فيه النبي صلى الله عليه وسلم من الزيادة في التطوع، كصلاة النافلة أو الذكر أو الصدقة، فجائز.

4 - الكيفية: فلا يجوز لمسلم أو مسلمة تغيير كيفية أداء العبادات التي علمنا إياها النبي صلى الله عليه وسلم، كتبديل ترتيب صفة الصلاة، بأن يسجد الشخص قبل الركوع مثلاً.

5 - الزمان: فهناك عبادات جعل الله عز وجل لها مواعيد ثابتة بينها لنا النبي صلى الله عليه وسلم. إذ لا يجوز أن نصوم في شهر آخر غير شهر رمضان، ولا يجوز أن نغير موعد الحج. وهكذا مواعيد الصلاة. فيجب أن نلتزم الزمان الذي حدده الله عز وجل وبينه النبي صلى الله عليه وسلم.

6 - المكان: بعض العبادات له أماكن مخصوصة تقام فيها، كالحج إذ هو في مكة حول الكعبة، والاعتكاف إذ لا يجوز أن يكون في مصلى البيت مثلاً.

ختاماً، فإن المسلم والمسلمة الحريصين على نيل محبة الله عز وجل يكونان حريصين على أن يخلصا عبادتهما لله عز وجل، ولا يشركا في عبادته وطاعته أحداً مع الله عز وجل، ويتعلما ويعملا بسنة النبي صلى الله عليه وسلم في أداء العبادات. وهذا هو المقياس الحقيقي لمحبة الله عز وجل واتباع النبي صلى الله عليه وسلم في حياة المسلمين.

ثالثاً: اتباع النبي صلى الله عليه وسلم في جانب الأخلاق:

مدح الله عز وجل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ" (القلم، الآية 4). ووصفت أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، خلقه صلى الله عليه وسلم بقولها: "كان خلقه القرآن" (رواه مسلم). وقد أمرنا الله عز وجل بالافتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك أخلاقه العالية؛ قال ربنا في كتابه: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا" (الأحزاب، الآية 21)؛ فالمسلم والمسلمة الصادقان في محبتهما لله عز وجل يتبعان النبي صلى الله عليه وسلم في أخلاقه أيضاً.

مفهوم الخلق في اللغة

الخلق هو السجّية والطّبع والدّين. ومفهوم الخلق في الاصطلاح: هو هيئة في النفس راسخة تصدر عنها الأفعال ببسر وسهولة. ومما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: "... واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرفني سيئها، لا يصرفني سيئها إلا أنت" (رواه مسلم)؛ فمن هذا الدعاء النبوي يتبين لنا أن الأخلاق منها حسن وفاضل، ومنها سيئ ومذموم.

أما الأخلاق الحسنة، فيكفي أنها الغاية من بعث الله عز وجل للأنبياء عليهم السلام للبشرية جمعاء، لقوله صلى الله عليه وسلم: "إنما بُعثت لأتممّ مكارم الأخلاق" (رواه البيهقي وصحّحه الألباني). فالأخلاق أساس دعوة الرسل جميعاً، صلوات الله عليهم، لأن أول الأخلاق الفاضلة هو توحيد الله عز وجل بالحبّ والطاعة والعبادة قال تعالى: "فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ" (البقرة، الآية 152)، وذلك شكراً على جميل إنعامه وفضله على البشرية بحسن خلقهم "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" (التين، الآية 4)، وبتكريمهم على غيرهم من الكائنات "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ..." (الإسراء، الآية 70)، وبتسخير الكون لهم "وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ..." (الجاثية، الآية 13).

ولذلك كانت مرتبة الإحسان، والتي هي أعلى مراتب الإيمان والإسلام، هي مرتبة حسن الخلق مع الله عز وجل أولاً ومع خلقه ثانياً. يقول العلامة عبدالرحمن السعدي عند تفسير قوله تعالى: "... وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (البقرة، الآية 195): "وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان؛ لأنّه لم يقيد بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدّم، ويدخل فيه الإحسان بالجاه؛ بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك الإحسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس؛ من تفريج كرباتهم، وإزالة شدّاتهم، وعيادة مرضاهم، وتشجيع جنائزهم، وإرشاد ضالّهم، وإعانة من يعمل عملاً، والعمل لمن لا يحسن العمل ونحو ذلك، مما هو من الإحسان الذي أمر الله به. ويدخل في الإحسان أيضاً الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك."

ولهذه المكانة المركزية لحسن الخلق في الإسلام، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً" (رواه أبو داود وصحّحه الألباني)؛ فتمام الخلق مع الله عز وجل بعبادته، وتمام الخلق مع عبيده هو ما يكمل الإيمان. ولما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، كان جواب النبي صلى الله عليه وسلم: "أفلا أكون عبداً شكوراً" (رواه مسلم).

ومن هنا قسم العلماء والباحثون الأخلاق إلى قسمين، هما: الأخلاق مع الله عز وجل، والأخلاق مع خلقه. وتحت القسم الثاني أقسام فرعية، وكان هذا كله من خلال دراسة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأخلاقه العالية.

يقول الإمام ابن القيم: قال أحدهم: حسن الخلق قسمان: أحدهما مع الله عز وجل: وهو أن تعلم أن كل ما يكون منك يوجب عذرا، وكل ما يأتي من الله يوجب شكرا، فلا تزال شاكرا له معتذرا إليه سائرا إليه بين مطالعة منته وشهود عيب نفسك وأعمالك. والقسم الثاني: حسن الخلق مع الناس، وجماعه أمران: بذل المعروف قولا وفعلا وكف الأذى قولا وفعلا.

1 - الأخلاق مع الله عز وجل: أساس الخلق مع الله عز وجل هو الالتزام بالتوحيد، كما قال تعالى على لسان لقمان: "وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ" (لقمان، الآية 13). فعبادة غير الله عز وجل هي تضييع لحق الله عز وجل وإعطاؤه لمن لا يستحق وهذا عين الظلم، بينما عبادة الله عز وجل هي عين العدل والحق.

وقد قسم بعض العلماء موضوع حسن الخلق مع الله عز وجل إلى ثلاثة أمور:

الأول: تلقي أخبار الله بالتصديق. وهذا مصداق قوله تعالى: "... وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا" (النساء، الآية 87). ولذلك، فإن ما نعيشه اليوم من بعض أبناء المسلمين المتأثرين بشبهات الأعداء والمستسلمين لأهوائهم من تكذيب أخبار القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية بشكل صريح ومباشر أو غير مباشر عبر التأويل والتحريف، هو من سوء الخلق مع الله عز وجل. والمسلم والمسلمة الحريصان على محبة الله عز وجل عليهما تصديق كل ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا لبّ الإيمان بالغيب وأساس الدين. ومن وطن نفسه على تصديق أخبار الله عز وجل، سهل عليه دفع كل شبهة جديدة حتى لو لم يتمكن من إبطالها في لحظتها، خاصة في هذا الزمان الذي كثرت فيه الشبهات ضد الدين والإسلام في وسائل الإعلام. أما من لم يوطن نفسه على ذلك، فقد يتزعزع إيمانه وتستولي الشبهة على قلبه وعقله.

الثاني: تلقي أحكامه بالتنفيذ. وهذا حقيقة الطاعة والخضوع لله عز وجل؛ فكيف ندعي حب الله عز وجل ونحن لا ننفذ أوامره وأحكامه؟ ولو استقام الناس على تنفيذ أحكام الله لانتهت مشاكلهم المالية والأخلاقية وحسنت علاقاتهم الاجتماعية وعمّ الأمن والأمان ربوعهم.

فتلقي أوامر الله بالتنفيذ بحسن الطاعة والعبادة يهذب نفوسهم ويدفعهم لأداء الحقوق وإعانة المظلوم والمحتاج ويعمم العدل ورد المظالم ويدعو للإتقان من الحاكم والمحكوم في أعمالهم ووظائفهم.

الثالث: تلقي أقداره بالصبر والرضا. فالحياة لا تخلو من محن وأزمات، والمؤمن المحب لله عز وجل والمتبع للنبي صلى الله عليه وسلم يؤمن بأن الصبر وعدم التسخط واتباع الأسباب الشرعية والدينية، هي الحل السليم، وإلا تعرض للاكتئاب والأزمات النفسية أو أقدم على الانتحار كما بدأ يشيع بين بعض المسلمين لضعف إيمانهم، مما يعقد مشكلتهم في الدنيا بزعة أسرهم وفي الآخرة بالعذاب الشديد.

والقلب المؤمن حين يتبع النبي صلى الله عليه وسلم في الإيمان بعظمة الله عز وجل وأنه صاحب الصفات العلى والأسماء الحسنى وأن أوامره دوما هي عين الحكمة والعدل وأن وحيه في القرآن الكريم والسنة الصحيحة محفوظ، يسهل عليه القيام بحق حسن الخلق مع الله عز وجل، وأي خلل في الإيمان سينعكس على ضعف أو خلل خلقه مع الله عز وجل.

2 - الأخلاق مع خلق الله عز وجل، وهي أقسام:

*** أخلاق ذاتية ونفسية:** كالصدق والأمانة والعفة والصبر والشجاعة والكرم والحياء، وغيرها من الأخلاق الفاضلة التي كانت من شمائله صلى الله عليه وسلم.

*** أخلاق اجتماعية:** مثل برّ الوالدين وحسن رعاية الأبناء والإحسان للزوج وإكرام الزوجة وحسن الجوار وصلة الأرحام والتعاون مع المجتمع ومراعاة الآداب العامة، وغيرها من الفضائل والمكارم التي أرشد لها صلى الله عليه وسلم.

*** أخلاق اقتصادية:** كأداء الحقوق وإتقان العمل ودقة الموازين وترك الغش، كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

*** أخلاق سياسية:** كالرحمة بالمرؤوسين والعدل في القضاء والحفاظ على الأموال العامة ومراعاة المصالح الحقيقية للمجتمع واحترام السفراء والإيفاء بالمعاهدات والاتفاقات، كما كانت سيرته صلى الله عليه وسلم.

*** أخلاق مع البيئة:** كالحرص على النظافة وإمالة الأذى عن الطريق وعدم إتلاف الزرع ولو في الحرب، وعدم الإسراف في الماء اتباعا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

*** أخلاق مع الحيوان:** كحسن الذبح وعدم العبث بحياتها للهو، وحسن التعامل معها وتجنب إرهاقها فوق طاقتها وتوفير الرعاية لها من الطعام والشراب والعلاج، فحتى الحيوانات كانت تعرف حسن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم فتلجأ إليه وتشتكي ممن أضر بها.

*** أخلاق مع غير المسلم:** كحسن التعامل معه ورعاية حقوقه ما لم يعتد ويتجاوز. وقد شدد النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك.

*** أخلاق في الحرب:** كإحسان حقوق الأسرى وعدم التعرض للمدنيين والحفاظ على الممتلكات العامة والخاصة. وكانت سيرته صلى الله عليه وسلم في الغزوات والسرايا تطبيقاً نموذجياً لذلك. هذه مجمل جوانب الأخلاق الإسلامية التي تجسدت في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم. ويضيق المقام عن حصر سائر الأخلاق النبوية وذكر أدلتها. والمسلم والمسلمة الحريصان على محبة الله عز وجل ومغفرته يكونان حريصين على تعلم الأخلاق النبوية وعلى التخلص بها على قدر الوسع والطاقة، وبهذا تزدهر حياتنا الفردية وتسد أسرنا وعائلاتنا وتعم السعادة فيها، بدلاً من تزايد الخلافات واللجوء للشرطة والمحاكم وتصاعد حالات الطلاق والشقاق والخلع. وبتابع الأخلاق النبوية تستقر مجتمعاتنا الإسلامية وتستقيم أحوالنا السياسية والاقتصادية وينحصر الفساد والاستبداد.

إن شيوع الأخلاق النبوية بيننا يجلب السعادة حتى للبيئة والحيوانات وحتى لأعدائنا لأن أخلاقنا الإسلامية تقوم على الرحمة والعدل مسنودة بالشجاعة والقوة المحقة.

أخلاقنا الإسلامية المنبثقة من أخلاق النبوة والتي يلتزم بها كثير من المسلمين والمسلمات، تقدم كل يوم دليلاً على رقيها وإحسانها للبشرية جمعاء في كثير من المواقف التي نطالعها في وسائل الإعلام. فلنجدد العزم على زيادة الالتزام والاتباع للنبي صلى الله عليه وسلم في أخلاقه لننال أكثر رضا الله ومغفرته.

رابعاً: اتباع النبي صلى الله عليه وسلم في شؤون الحياة:

أو ما سماه بعض العلماء "العادات"، والتي تشمل شؤون المعيشة والطعام واللباس والسفر والفرح والترح، والتي باتباعه صلى الله عليه وسلم فيها نحقق محبة الله عز وجل ومغفرته، وأيضاً نتحصل على الهداية، لقول الله عز وجل: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمَّا مَنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" (الأعراف، الآية 158).

* من هديه صلى الله عليه وسلم أن يحرص المسلم والمسلمة على أن يكون طعامهما وشرابهما من حلال، لقوله صلى الله عليه وسلم: "أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: "يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ" (المؤمنون، الآية 51) وقال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ..." (البقرة، الآية 172). ثم نكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذّي بالحرام، فأنتى يُستجاب لذلك" (رواه مسلم).

وكلما شاع في الأمة أكل الحلال والحرص عليه، كانت معونة الله عز وجل لها كبيرة وسريعة، واستجاب الله دعاءها تجاه المصائب التي تحيق بها. وكلما حرصت على أكل الحلال، كانت وحدتها وجبهتها الداخلية قوية؛ فالتراخي في أكل الحلال، بقبول الرشوة دفعاً وقبضاً يشيع الفساد ويضيع الحقوق ويعطل مصالح الناس، وعدم إتقان العمل في القطاعين العام والخاص يدخل في أكل الحرام، مما يعاقب صاحبه في الآخرة، وهو مما يعرقل نهضة المجتمع، ويسبب الضرر للجميع.

ومن أكل الحلال تجنب ما نهى عنه الله عز وجل ورسوله من الأطعمة والأشربة المحرمة، وهي محدودة جداً؛ كالميتة والخنزير والخمر وذوات المخلب والناجب وما تغدّى على القمامة، أو ما فيه مضرة كالتدخين والأرجيلة والمخدرات. وقد أثبت العلم الحديث أن هذه الأشياء مضرة بذاتها، ولذلك حرمت لحماية ووقاية الناس من أضرارها الصحية والاقتصادية. من هنا، يجب أن نوسع دائرة الوعي بشمولية الدين وأوامر القرآن الكريم والسنة النبوية، لتحقيق مصالح الناس في الدنيا والآخرة.

ومع أمر الله عز وجل بأكل الطيبات، إلا أنه نهى أيضاً عن الإسراف، وهو من أبرز الأمراض التي تغزو مجتمعات المسلمين باسم العولمة والتقدم. فقد أصبح الإسراف في الولائم الرسمية والشعبية عبئاً كبيراً على كاهل المجتمع، وأرقام تقارير المحاسبة في عالمنا الإسلامي والعربي تكشف عن جرائم حقيقية ترتكب باسم مصاريف غداء وضيافة في المؤسسات الرسمية، إذ تنفق الملايين على إطعام عدد محدود من النواب والوزراء من الأغنياء بينما ألوف الفقراء يمكن أن تسد حاجتهم بهذه الأموال. أيضاً، أصبحت عادات الإسراف في حفلات الزفاف؛ من المبالغة في نوع القاعة وخدماتها والضيافة وغيرها، مما يعرقل زواج كثير من الشباب والفتيات، ويفتح باب الحرام الذي تروج له قيم حداثة معولمة. ويرتب الإسراف والمبالغة في حفلات الزفاف الديون الكثيرة على العريس وأهله. وللأسف، فإن هذه المصاريف المرهقة تكون سبباً للنزاعات بين العريسين لاحقاً،

وقد تتسبب بالطلاق والانفصال. وقد تزايدت لدرجة مقلقة نسب الطلاق في السنة الأولى من الزواج لتصل إلى 40 % من حالات الزواج في عدد من الدول العربية.

وهذا الإسراف والمبالغة في شؤون الزواج هما نتيجة طبيعية لخلل معايير اختيار الطرف الثاني لبناء الأسرة. فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتزويج من رضينا دينه وخلقه من الرجال، والحرص على اختيار ذات الدين من النساء، وسُنَّته وهديه في تخفيف المهور مما يطرح البركة في الزواج وبناء هذه الأسرة الجديدة. ومن المهم في هذا الوقت توعية الشباب والفتيات بمفهوم وأحكام الزواج وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم مع زوجاته، للحصول على أسرة ناجحة وموقّعة في ظل التآمر على تحطيم منظومة الأسرة؛ سواء عبر اختراق اللاوعي من خلال الإعلام، بأشكال من الدراما والرواية، أو عبر التشريعات الدولية المناقضة لمنهج الإسلام في الأسرة.

ومقابل هذا الإسراف، نجد ترويج قيم الفردية وعدم مشاركة الآخرين والتواصل معهم، حتى لو كانوا إخوة وأقارب أو جيرانا وزملاء، كنتيجة طبيعية لقيم الحضارة المادية. وفي المقابل، يرفض الإسلام البخل بعدم الإنفاق على الأهل أو المجتمع من تكافل وصدقة وزكاة. وأسوأ صور ذلك البخل هو البخل بسبب إنفاق المال على المخدرات والخمور.

* بخصوص التواصل مع المجتمع، فقد حث الإسلام على مخالطة الناس والإحسان إليهم وتعليمهم ومعاونتهم ونصيحتهم ومنع الظلم عنهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ..." (آل عمران، الآية 110)، وقال صلى الله عليه وسلم: "المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم" (رواه ابن ماجة وصححه الألباني). وهذه الإيجابية نحو التواصل مع المجتمع هي التي زودت مجتمعاتنا الإسلامية بالقوة عبر العصور، والتي تحطمت عليها كل محاولات القضاء على أمتنا.

لذلك، فإن مما يلزم تقويته في هذه المرحلة، المزيد من التشاركية بين أهل العلم والدعاة والمجتمع، لأن وظيفة العلماء والدعاة هي إرشاد الناس إلى سبيل الله عز وجل الذي يحقق للبشرية مصلحتها في الدنيا والآخرة، خاصة مع تزايد سبل الشهوات والشبهات التي تصب على المسلمين والمسلمات صباح مساء.

وإذا لم يتصدّ العلماء الحقيقيون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالعلم والحكمة، فإن الجهلة والغلاة هم من سيقوم بذلك بجهل وتهور أو بتخطيط خبيث لنشر الفوضى والقلق. واستغلال الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر من قبل المندسّين لزعة المجتمع أمر قديم، فقد نقل الإمام الطبري في تاريخه عن ابن سبأ اليهودي الذي أسس لفكر الخوارج قوله لأتباعه: "ابدأوا في الطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا قلوب الناس وادعوهم إلى هذا الأمر".

* من أتباع النبي صلى الله عليه وسلم اتباعه في اللباس والهيئة. فقد أمر صلى الله عليه وسلم بالنظافة وحسن المظهر، وكان يحب التعطر والرائحة الجميلة. وهو لم يحدد لباساً أو زياً محدداً للرجال والنساء، لكنه وضع شروطاً عامة يلزم التزام جميع المسلمين والمسلمات المحيّن لله عز وجل ونبيه بها، من أهمها:

- ستر العورة. فلا يجوز أن تظهر العورات من الرجال والنساء، كلا بحسبه؛ سواء باللبس العاري أو الشفاف. وأيضاً، لا يجوز أن تجسد العورات بلبس الضيق. وما نشاهده من اتباع موضة تكشف عورات أصحابها في الصلاة في المساجد وغيرها، هو مما يبطل صلاتهم. تخيلوا شاباً يتوضأ ويترك عمله ويذهب للمسجد، لكن مع الركوع والسجود تظهر عورته فتبطل صلاته وهو لا يدري!

- عدم التشبه؛ بلبس الرجال لملايس النساء، ولبس النساء لملايس الرجال، أو التشبه بلبس ملايس غير المسلمين مما يختص بهم. فمن الأخطاء لبس الشباب للأساور والسلاسل، وخاصة الذهب، في تشبه بالنساء وغير المسلمين. وكذلك ما نراه من بعض النساء من لبس ملايس الرجال. وما يلبسه الشباب والفتيات اتباعاً للموضة الوافدة؛ بلبس الممزق مما يكشف العورات. فهذه كلها مخالفات لهدى النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذه المخالفات في اللباس تجرّ لكثير من المفاسد الاجتماعية والاقتصادية؛ إذ تزيد من الجرائم الأخلاقية وتفاقم أزمة الاستهلاك بمتابعة الموضة وصرعاتها، وترهن الشباب والفتيات لقذورات سيئة أخلاقياً وقيماً.

* في قضية الموت والتي لا ينجو منها بشر، كان من هدى النبي صلى الله عليه وسلم توجيه الناس للاستعداد له بعمل الصالحات، قال الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلِتَنْظُرُنَّ نَفْسًا مَّا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" (الحشر، الآية 18). لذلك، كان من توجيهاته الدائمة صلى الله عليه وسلم: "اذكروا هادم اللذات" (رواه الترمذي). وكانت سنته عليه الصلاة والسلام التعامل مع الموت ورهبته بالتواضع والاعتبار، ولذلك نهى عن اللطم والصراخ، ونهى عن تعظيم القبور والبناء عليها، ونهى عن إشغال أهل الميت بتجهيز طعام أو ما شابه. لكن لما ابتعد الناس

عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، أصبحت الجنائز تجمع مصائب متعددة. إذ فوق حزن أهل الميت ومصابهم، فإن العادات المناقضة لسنة صلى الله عليه وسلم أصبحت تلزم أهل الميت بتجهيز مكان لائق وطعام وخدمة للمعزّين بما يخالف السنة النبوية. وقد يستدين أهل الميت من أجل هذه المظاهر الكاذبة، وهم أحوج ما يكون للمساعدة. وفي اجتماعات العزاء هذه، لا تجد عظة ولا اعتباراً لدى المتواجدين المشغولين بأخبار السياسة والاقتصاد والغيبة والنميمة. وحتى قراءة القرآن في اجتماعات العزاء تكون بلا خشوع ولا تدبر، لأنهم كثير من هؤلاء القراء هو التجارة بالقرآن الكريم، فيما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أخذ الأجرة على قراءة القرآن. وليست حال النساء بأفضل؛ فهنّ بين نواح ولطم أو ترتيب زينة خاصة بالعزاء في مناقضة تامة لمغزى وعبرة الموت.

في الختام؛ إن اتباع أمر النبي صلى الله عليه وسلم في العادات فيه كل الخير والبركة الدينية والدنيوية لمن تأمل وتدبّر. وهذا جانب من الإيمان بالغيب؛ فبعض السنن قد لا نعرف فائدته وحكمته الآن، لكننا نؤمن بأن لها فائدة وحكمة ومصلحة، قد نعلمها وقد نجهلها، وواجبنا هو التسليم والاتباع.

رابعاً: اتباع النبي صلى الله عليه وسلم في شؤون الحياة:

وهي ما تركه صلى الله عليه وسلم من الأعمال قاصداً، فكما تحدثنا عن اتّباعه في جانب العقيدة والإيمان والأفكار والمفاهيم، واتّباع النبي صلى الله عليه وسلم في جانب العبادات والشعائر والمعاملات واتّباعه في باب الأخلاق وفي مسائل الحياة أو ما سماه بعض العلماء بالعبادات.

السنة التركيبية:

إن سنة النبي صلى الله عليه وسلم تنوعت بين أعمال فعلها وأعمال تركها عامداً، وإن كان ما فعله هو السائد، والذي يستحضره المسلم والمسلمة غالباً، لكن تمام اتّباع النبي صلى الله عليه وسلم هو موافقته فيما تركه، وقد فهم ذلك الصحابة والتابعون والأئمة المرضيون، ومن ذلك:

قول حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "عليك بتقوى الله والاستقامة اتّبع ولا تتبدع"، وقال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، رحمه الله: "قف حيث وقف القوم، فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وهم على كشفها كانوا أقوى، وبالفعل لو كان فيها أخرى"، وقال الإمام الأوزاعي:

"اصبر نفسك على السنة وقِف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك ما وسعهم"، وعبر عن ذلك الإمام الشافعي، رحمه الله، بوضوح وتصريح فقال: "لكننا نتبع السنة فعلا وتركاً".

فالفعل والترك هو أمر يطلب من المسلم والمسلمة اتباع النبي صلى الله عليه وسلم فيه، قال تعالى: "كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه لئیس ما كانوا يفعلون" (المائدة: 79) فسمى الله ترك النهي عن المنكر فعلاً سيئاً سيحاسبون عليه! وقال صلى الله عليه وسلم: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده" رواه البخاري، فسمى ترك الأذى إسلاماً وسيجازى عليه المرء بالثواب.

ولذلك يسمّ العلماء الترك لقسمين: ترك عدمي؛ وهو الترك مع الذهول عن المتروك أو مع عدم القدرة عليه، وهذا لا يحاسب عليه المسلم والمسلمة، وترك وجودي؛ وهو الكفّ مع القدرة، وهذا الذي يدخل في حد التكليف، ويجازى عليه بالثواب إن تركه لله عز وجل كترك السرقة والزنا والرشوة والكذب والظلم والفساد وسوء الخلق ... إلخ.

وبحسب أطروحة الدكتوراه ليحيى خليل، وهي بعنوان (السنة التركبية) تُعرف السنة التركبية بأنها: سكوت النبي صلى الله عليه وسلم عن الفعل غير الجبلي مع قيام المقتضى وعدم المانع؛ وأن لا يكون المتروك حقاً للغير.

وشرح هذا التعريف باختصار هو أن السكوت عن الفعل يصدر عن النبي صلى الله عليه وسلم فقط وليس غيره، ولا يكون من أفعاله الجبلية الشخصية ككونه يكره أكل الضبّ مثلاً، ويكون مبرر الفعل موجوداً في زمانه صلى الله عليه وسلم كسكوته وتركه أخذ الزكاة عن الخضروات رغم أنها موجودة بين يديه وأخذه الزكاة عن التمر والنخل، ولا يوجد مانع من فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك كتركه صلاة التراويح جماعة حتى لا تُفرض على والمسلمين، ولذلك فتركه لصلاتها جماعة لم يكن لحرمة صلاة التراويح جماعة بل حتى لا تصبح صلاة واجبة يَأْتَمُّ من يتركها، ولا يكون تركه لذلك الفعل بسبب حق لأحد كتركه أكل الثوم لحق الملائكة والمسجد فلا يحرم أكل الثوم وإنما من أكله لا يأتي صلاة الجماعة.

ومعرفة السنة التركبية يكون بتصريح الصحابة بترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الفعل، أو يكون ترك الفعل المعين مفهوماً ضمناً أو عدم نقل الصحابة ذلك الفعل من النبي صلى الله عليه وسلم رغم توفر همتهم لنقل كل أفعاله صلى الله عليه وسلم.

ولعل الأمثلة التالية توضح أكثر مفهوم السنة التركبية:

1 - صلاة العيد: فصلاة العيد صلاة جماعية وتحتاج إلى إعلام ليجتمع الناس، لكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يؤذن لها ولا يقول "الصلاة جامعة"، ولا يقيم لها الصلاة ولا يصلي ركعتين سنة في مصلى العيد، فلذلك كانت سنته ترك الأذان والإقامة وصلاة ركعتين سنة في المصلى.

وقد صرح بترك الأذان والإقامة بعض الصحابة، فعن جابر بن سمرة رضي الله عنهما قال: "صليتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم العيد غير مرة ولا مرتين فبدأ بالصلاة قبل الخطبة، بغير أذان ولا إقامة" رواه مسلم، ولذلك قال الإمام الشافعي في كتابه "الأم": "ولا أذان إلا للمكتوبة، فإننا لا نعلمه أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا للمكتوبة" وهذا فيه نفي نقل الصحابة للأذان لغير المكتوبة، فلا أذان لصلاة الكسوف أو الخسوف كذلك.

وبخصوص سنة العيد، قال الإمام النووي في المجموع: "أجمعوا على أنها ليس لها سنة قبلها ولا بعدها" ومستند الإجماع هو ترك النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم لوجود هذه السنة.

2 - ترك الجهر بالنية في الوضوء والصلاة: فقد نقل الصحابة رضوان الله عليهم لنا صفة وضوئه وصلاته صلى الله عليه وسلم ولم يذكروا أنه كان يجهر بالنية، وقد شرح الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه صفة وضوء النبي صلى الله عليه وسلم، فعن حمران مولى عثمان بن عفان أنه رأى عثمان بن عفان دعا بوضوء، فأفرغ على يديه من إنائه فغسلهما ثلاث مرات ثم أدخل يمينه في الوضوء ثم تمضمض واستنشق واستنثر ثم غسل وجهه ثلاثاً ويديه إلى المرفقين ثلاثاً ثم مسح برأسه ثم غسل كل رجل ثلاثاً، ثم قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ نحو وضوئي هذا، وقال: "من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر الله له ما تقدم من ذنبه" رواه البخاري.

ولقد بينت لنا أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها بداية صلاته صلى الله عليه وسلم فقالت: "كان صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين" رواه مسلم.

ولذلك قال الإمام النووي في كتابه "المجموع": "النية الواجبة هي النية بالقلب، ولا يجب التلفظ باللسان"، والمذاهب الأربعة متفقة على أن القلب هو محل النية.

3 - إنكار عقيدة المعتزلة أن القرآن الكريم مخلوق: وقد كانت حجة الإمام أحمد بن حنبل في رفض هذه العقيدة المبتدعة أنه لا مستند لها في القرآن الكريم أو في السنة النبوية، فكيف تكون عقيدة إسلامية صحيحة ولم ترد في الوحي؟ ولذلك قال الإمام أحمد في كتابه (الرد على الجهمية

والزنادقة): "يقال له: هل تجد في كتاب الله آية تخبر عن القرآن أنه مخلوق؟ فلا يجد. فيقال له: فتجد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن القرآن مخلوق؟ فلا يجد."

4 - التبرك ببعض الآثار والأشياء مما له تعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم: فمما هو معلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه حجّوا وزاروا مكة وكان فيها الكعبة والمقام والمنزل الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم وغيرها من الأماكن التي جلس تحتها أو مرّ بها، ولم ينقل أنه حث أصحابه على زيارتها أو التبرك بها!

بل وجدنا الفاروق الملهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "أما والله لقد علمت أنك حجر ولولا أنني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبّلك ما قبّلتك" رواه مسلم، ولذلك لم يكن الصحابة والتابعون يستلمون ويتمسّحون بمقام إبراهيم وغيره مما حول الكعبة.

وروي أن الفاروق رضي الله عنه أمر بإزالة الشجرة التي بايع الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم تحتها بيعة الرضوان، وبين الإمام ابن حجر العسقلاني أنه فعل ذلك حتى "لا يحصل بها افتتان لما وقع تحتها من الخير، فلو بقيت لما أمن تعظيم بعض الجهال لها"، وقارن فعل الفاروق الملهم بشجرة الرضوان وبين ما أحدث وابتدع مؤخرا في الأردن - بدون سند ودليل - من زيارة شجرة في الصحراء يدعون أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس تحتها في رحلته للشام وهو غلام مع عمه أبي طالب!

ومما يكشف بطلان هذه الفرية أن هذه القصة حدثت في زمن فتوته صلى الله عليه وسلم ولم يكن هناك من يسجّل أخباره، ولم يعرف هذه الشجرة أحدٌ طيلة هذه العقود، والآن فجأة بدون سند أو دليل تظهر! لكنها باب للضلال في الدين والتكسب وأكل مال الناس بالباطل إذا تحولت لمزار وبيع ورقها وترابها كما يفعل مع كثير من الأشياء المشابهة زورا وبهتانا.

وأتباعا للنبي صلى الله عليه وسلم ولما فهمه الصحابة الكرام عنه، قال الإمام النووي في بيان ضلال ما يفعله بعض الجهلة عند قبره صلى الله عليه وسلم: "لا يجوز أن يطاف بقبره صلى الله عليه وسلم ويكره إصااق الظهر والبطن بجدار القبر، قاله أبو عبيد الله الحلبي وغيره، قالوا: ويكره مسحه باليد وتقبيله، بل الأدب أن يبعد منه كما يبعد منه لو حضره في حياته صلى الله عليه وسلم. هذا هو الصواب الذي قاله العلماء وأطبّقوا عليه، ولا يغتر بمخالفة كثيرين من العوام وفعلهم ذلك، فإن الاقتداء والعمل إنما يكون بالأحاديث الصحيحة وأقوال العلماء، ولا يلتفت إلى محدثات العوام وغيرهم وجهالاتهم."

5 - ذكر الله عز وجل مع الرقص: معلوم أن ذكر الله عز وجل من العبادات الجليلة "يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا" (الأحزاب: 41)، والنبي صلى الله عليه وسلم هو أفضل البشرية في ذكر الله عز وجل، فهل كان يذكر الله بالرقص والقفز؟ وهل علمه أصحابه؟

ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك ولم يُنقل عنه، لما سئل سلطان العلماء العز بن عبد السلام عن الرقص أثناء الذكر أجاب بقوله: "الرقص بدعة لا يتعاطاه إلا ناقص العقل، ولا يصلح إلا للنساء، وقال الشيخ السبكي عن الذكر بطريقة الرقص والقفز: "السماع على الصورة المعهودة منكر وضلالة، وهو من أفعال الجهلة والشياطين، ومن زعم أن ذلك قرينة فقد كذب وافترى على الله، ومن قال: إنه يزيد في الذوق فهو جاهل أو شيطان، ومن نسب السماع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤدب أدبا شديدا، ويدخل في زمرة الكاذبين عليه صلى الله عليه وسلم، ومن كذب عليه متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، وليس هذا طريقة أولياء الله تعالى وحزبه وأتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل طريقة أهل اللهو واللعب والباطل، وينكر على هذا باللسان واليد والقلب."

هذه بعض الأمثلة على السنة التركية الواجب الاقتداء والاتباع فيها بالنبي صلى الله عليه وسلم والتي تضبط كثيرا من الخلافات بين الناس، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يفعل شيئا مع توفر دواعيه وانتفاء المانع منه كي يكون خيرا وعبادة والله عز وجل يقول: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً" (المائدة: 3)، فكيف يتم الدين ثم يزعم زاعم أن من الدين أشياء لم يفعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

ولذلك نلتزم فهم الصحابة الكرام والسلف الصالح في فهم الدين واتباع النبي صلى الله عليه وسلم، وقد لخص لنا الإمام الشافعي ذلك بقوله: "لكننا نتبع السنة فعلا وتركاً".

الخاتمة:

بعث الله عز وجل الرسل عامة ومحمد صلى الله عليه وسلم ليرشدوا الناس للحق والهدى، وأوجب على الناس طاعتهم، وطاعتهم تستوعب مختلف جوانب الحياة، ومن حقق الطاعة فقد برهن على صدق محبته وتعظيمه للنبي صلى الله عليه وسلم.

وقبل هذا كله فإن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وطاعته هو برهان محبة الله عز وجل "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله"، جعلنا الله جل جلاله ممن يحبونه ويتبعون رسوله الكريم.